زرقاء اليمامة

عبد المنعم الهاشمي

دار الإيمان
إسكندرية

محفوظة
جميع الحقوق

رقم الإيداع ٢٠٠٣/٣٢٣٤

الترقيم الدولي

977-331-971-1

دار الأعيان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع جليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون فاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

دار العمة
لتوزيع الكتاب والتوزيع الخيري
١٩ شارع جليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون فاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٤٩٦
E-mail:dar-aleman@hotmail.com

زرقاءُ اليمامة

١ ـ قومُ تُبَّع:

جاء في القرآن الكريم في ذكرُ قومِ تُبَّع في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (سورة الدخان: ٣٧). وقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ (سورة ق: ١٤). هؤلاء القوم ما هي قصتُهم؟ وما هي علاقتُهم بالإسلام؟ وهل عاشت زرقاءُ اليمامةَ في عهدِهم؟

وقد وجدنا لكي نتحدثَ عن زرقاءِ اليمامةِ فلابد أنْ نتحدثَ عن التباعنة أو (التبابعة) أولاً.

تحدَّث المفسرون عن التبابعة فقالوا[1]: ليس المراد بتُبع رجل واحد بل المراد به مُلوك اليمنِ، فكانوا يُسمُّون ملوكَهم التبابعة، فتُبع لقب للملك منهم كالخليفة بين المسلمين، وكسرى للفرسِ، وقيصر للرومِ، وسُمِّيَ كل واحدٍ منهم تُبَّعًا لأنَّه يتبعُ صاحبهُ، ومن الملوك التبابعة: الحارثُ الرائش وأبرهة ذو المنار، وشمر بن مالك، وحسان اليماني وغيرهم، ومن الذين فتحوا البلادَ كالصين حتى إنَّه كان للملك منهم «التبع» أن يقول «قد دعتني نفسي أن أنطحَ الصين»، وبالفعل قد

---

(١) القرطبي (جـ ١٦، مجلد ص٩٦، ٩٧). ط العلمية ـ بيروت.

أعدوا جيوشًا زحفت للصين وواصلوا فتوحاتهم داخلها. وهو ما كشفت عنه الحفائرُ الجيلوجيةُ التي اثبتت ذلك بلا شك[1].

ويكفي القارئ معرفةَ أنَّ من بين أولئك الملوك «التابعنة» بلقيسَ ملكةَ سبأ، ومعاصرتها لنبي الله سليمان الحكيم عليه السلام.

كما يكفي معرفةً أنَّ حضاراتٍ بكاملها كانت موجودةً ومتعارفًا عليها حضريًا في ربوع الشام وفلسطين، وتعرف باسم «تدمر» وهو اسم إحدى الملكاتِ اللائي ينتمين للملوك التباعنة فهي ابنة حسان اليمانيِّ المتعارف عليه شعبيًا باسم «ذو اليمنيْن» وهو ما كان يطلق عليه.

كما إن من بين أولئك الملكاتِ المنتميات أيضًا للملوك التبابعةِ الملكة المعروفة «زانوبيا» التي قاومت الإمبراطورية الرومانيةَ طويلاً إلى أن وقعت في الأسر وسحبت كأسيرةٍ هي وعرشها إلى روما حوالي عام ٢٧٠ قبل الميلاد.

أمّا آخر الملوكِ التباعنة فهو الملك «ذو اليزن» المعروف بسيرته الكبرى وكذلك ابنه الملكِ «سيف بن ذي يزن» وهذان الملكان «سيف وأبوه» بالذات قد لعبا الدورَ الأكبرَ في التعريب داخل القارة الأفريقية، بدءًا بمصر والسودان والقرن الأفريقي المتاخم لليمن وأثيوبيا والسودان ومصر، وبقية أفريقيا، حتى إذا ما جاءت

---

(١) شوقي عبد الحكيم «سيرة الملوك التباعنة». ط الدار المصرية اللبنانية.

الفتوحاتُ الإسلاميةُ وجدت الأرض ممهدةً لاستنبات وانتشار الإسلام في القارة الأفريقيَّة.

كذلك تـردُ مأثوراتُ التـباعنةِ في قـصةِ «زرقاء الـيمامـة» تلك الأميرة نافـذة البصر، التي حذّرت قـومها من غزو الملوك التـباعنة، حين صعدت إلى أعلى أبراج المدينة وظلت تُهيب بقومِها وتقول: «**يا قوم لقد مشت إليكم الأشجار وجاءتكم حمير...**».

وهذا ما سنعود إليه في قصتنا عن زرقـاء اليمامة بعد أن نتحدث عن قوم تُبَّع الذين ذُكروا في القرآن الكريم.

وقد ذكر المفـسرونَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا أدري أتُبَّع لعينٌ أم لا**»، ثم روى عنه أنه قال: «**لا تَسُبّوا تُبعًا فإنَّه كان مؤمنًا**»[1]. فهذا يدلُّكَ على أنَّه كـان واحدًا بعـينه؛ وهو ـ والله أعلم ـ أبو بكر الذي كسـا البيت بعدمـا أراد غزوَهُ، وبعدمـا غزا المدينة وأراد خـرابها ثم انصرف عنها لَمَّا أُخبر أنَّها مهاجَرُ نبيٍّ اسمُه أحمدُ، وقال شعرًا أودعه عند أهل المدينة؛ فكانوا يتـوارثونه عبر الزمان كـابرًا عن كابر إلى أن هاجر النبيُّ ﷺ فأرَوْهُ إيَّاه، ويقال: كـان الكتاب والشعر عند أبي أيوبَ الأنصاريِّ «خالد بن زيد» وفيه:

شـهـدت على أحـمـدٍ أنَّه ▫■▫ رسـولٌ من اللهِ باري النَّسَمْ
فلو مُـدَّ عـمـري إلى عُـمـرِهِ ▫■▫ لـكـنـتُ وزيـرًا لـه وابـنَ عـمْ

---

(١) «تفسير القرطبي» للآية ٣٧ من سورة الدخان، (مجلد ٨، جـ١٦، ص٩٧).

وكان في الكتاب الذي كتبه أيضًا: «**أما بعد، فإني آمنت بك وبكتابك الذي أُنزل عليك، وأنا على دينك وسنتك، وآمنت بربكَ وربُ كلَّ شيءٍ، وآمنت بكل ما جاء من ربك من شرائع الإسلام**»، (يقول هذ الرسول ﷺ) ثم يُكمل: «**فإن أدركتُكَ فبها ونَعمت، وإن لم أدْرِكْكَ فاشفع لي ولا تنسني يوم القيامة، فإنيٌ من أُمَّتِكَ الأولَّين وبايعتُكَ قبل مجيئك، وأنا على ملَّتك وملةِ أبيك إبراهيمَ عليه السلام**». ثم ختم الكتاب ونقش عليه: «**لله الأمْرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ**». (الروم: ٤). وكتب على عنوانه: «**إلى محمدِ نبيِّ اللهِ ورسولهِ، خاتم النبيين ورسول رب العالمين ﷺ، من تُبَّع الأوَّل**».

واختُلف في تُبَّعٍ هذا هل كان نبيًّا أو ملكًا، فقال البعض: كان تبع ملكًا، وقال الآخر: كان تُبع ملكًا من الملوك، وكان قومُه كهانًا وكان معهم قومٌ أهلُ كتابٍ، فأمر الفريقين أن يُقرِّب كلُّ فريقٍ قربانًا ففعلوا، فتُقبل قربانُ أهل الكتاب فأسلم[1].

وقالت عائشةُ رضي الله عنها: «**لا تسبوا تُبَعًا فإنَّه كان رجلاً صالحًا**»، وقيل: إنَّ تبعًا كان رجلاً من حمير، سار بالجنود حتى عبرَ الحيرةَ وأتى سمرقند فهدمَها، وقيل: إنَّه هو أبو بكر أسعد بن مليكرب، وإنما سُميَّ تُبعًا لأنَّه تبع مَنْ قبلهُ، وقد ذُكر أنَّ الله ذم قومَه في القرآن ولم يذمّه، وضرب بهم لقريش مثلاً لقربهم من دارهم وعظمهم في نفوسهم، فلما أهلكهم الله تعالى ومَنْ قَبْلَهُمْ، لأنَّهم

---

(١) المصدر السابق (ص٩٧، ٩٨).

كانوا مجرمين وكان من أجرم مع ضعف اليد وقلة العدد أحرى بالهلاك. وافتخر أهل اليمن بهذه الآية الكريمة: ﴿**أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ**﴾ (سورة الدخان: ٣٧). إذ جعل الله عزَّ وجلَّ قوم تبع خيرًا من قريش. **وقيل:** سُمِّيَ أولُهم تُبعًا لأنَّه اتبع قرن الشمس وسافر بين الشرق مع العساكر.

٢ ـ جديس وطسم:

قبيلةُ جديس هي قبيلة زرقاءِ اليمامة، وقبيلةَ طسم التي تجاورها، هما قبيلتان من أصل واحدٍ وأبناء عمومة.

فطسم: اسمها على اسم طسم بن لوذ بن أزهر بن سام بن نوح. **وجديس:** اسمها على اسم جديس بن عامر بن أزهر بن سام بن نوح. هاتان القبيلتان كانت مساكنُهُما موضعًا باليمامة، وكان اسم اليمامة حينئذٍ جوّ، وكانت من أخصب البلاد وأكثرها خيرًا واسم ملكهم أيامَ ملوكِ الطوائفِ «عمليق».

ولكن عمليقًا هذا ملك طسم كان ظالمًا لما قد تمادى في ظلمهِ وكانت سيرتُه قبيحةً كثيرةَ القبح والظلم، وخاصةً مع جيرانِهِ من قبيلة جديس، وكلهُم من قومِ تُبّع.

وهناك قصةٌ تدلُّ على جذور العداوةِ التي نشأت بين قبيلة طسم وقبيلة جديس. **تقول هذه القصة**[1]: إنَّه كانت امرأةٌ من جديس اسمُها

---

(١) «الكامل» لابن الأثير، (جـ١، ص٣٥١). ط دار صادر ـ بيروت.

هُزَيلة، ولها زوجٌ اسمُهُ ماشِق، فطلَّقها وأراد أخذ ولدِها منها، فاشتكت هزيلة زوجها ماشق إلى ملك طسم وهو «عمليق»، فقالت: يا أيها الملك، إنِّي حملتُه تسعًا، ووضعتهُ دَفْعًا، وأرضعته شَفْعًا، حتى إذا تَمَّتْ أوصالُه، ودَنا فِصالُه، أراد أن يأخذه منِّي كُرْهًا، ويتركَني من بعده وَرْهًا وحمعًا.

فقال عمليق ملك طسم الظالم: ما حُجَّتُك، وماذا تقول للردِّ عليها؟.

قال زوجُها ماشق: حُجَّتي أيَّها الملك أنَّي قد أعطيتها المهر كاملاً، ولم أصِبْ منها طائلاً، إلاَّ وليدًا خاملاً، فافعل ما كنت فاعلاً، فأمر بالغلام أن يؤخذ منهما الأم هزيلة والأب ماشق.

عند ذلك انشدت هزيلة تقول:

أتينا أخانا ليحكم بيننا ▫■▫ فأنفذَ في هزيلة ظالما

فلما سمعَ الملكُ عمليق قولَها غضبَ وأمر إلاَّ تتزوجَ بِكْرٌ من قبيلة جديس وتُهدى إلى زوجها قبل أن تؤخذَ مشورتُه قبل زواجها، وظلم جديس فلقوا من ظلمه بلاءً وجهدًا وذلاً.

وكان أن تزوجت فتاةٌ تُسمىَّ الشموس من قبيلة جديس فعرضوا الأمر على عمليق فأساءَ إليها وإلى جديس، فلما سمع أخوها الأسود وكان سيدًا مُطاعًا في «جديس» قال لقومِه: «يا معشر

جديس، إنَّ هؤلاء القومَ «طسم» ليسوا باعزَّ منكم في داركم، ولولا عجزُنا وضعفُنا ما كان لعمليق فضلٌ علينا، ولو اعترضنا طريقَ ظُلْمِه ونزعنا ما في نفوسنا من خوف لكان لنا منه العدل ولما تمادى في ظلمه كما ترون فأطيعوني فيما آمركُمْ به، فإنَّه عزُّ الدهر، لكي نُذْهبَ الذُّلَّ عن أنفسنَا ونحكمَ أمرَنا بأنفسنَا، فاسمعوا واقبلوا رأيي.

تحمَّستْ قبيلةُ جديس، ودبت في أوصالها نخوة العزّة والكرامة، **فقالوا للأسود زعيمهم الجديد:** نطيعك، ولكن قبيلة «طسم» أكثر منَّا رجالاً، وأقوى منَّا شكيمةً. **فقال الأسود:** فإنِّي أُعِدُّ للملك وليمةً من الطعام عظيمةً هو وحاشيته وقومه جميعًا فإذا جاءوا جميعًا في ملابسهم وحللهم، أخرجنا لهم السيوف وثأرنا لكرامتنا واسترجعنا عزَّتَنا فقتلناهم أجمعين.

وافق أهلُه قبيلةُ جديس على الخطة، وصنعوا طعامًا كثيرًا لهم، وخرجوا به إلى قرب بلدهم، ودعا الأسود ملك طسم «عمليق» دعاه إلى تناول الغداء عنده هو وأهل بيته، فأجابه إلى ذلك، وخرج إليه مع أهله يرفلون في الحلل والملابس والذهب والزينة. حتى إذا أخذوا مجالسَهم أمامَ موائدِ الطعامِ ومدُّوا أيديَهم أمسك رجال جديس بسيوفهم المخبأة تحت أقدامهم، فشدَّ الأسود على عمليق فقتله لظلمه وجبروته وفساده، وهجم كلُّ رجلٍ منهم على جليسه فقُتل منهم الكثير أشرافًا وخدمًا، واسترد أهل جديس كرامتهم وعزتهم وشرفهم الذي أهانه عمليق ملك طسم.

وقال الأسود في ذلك شعرًا جاء فيه:

ذوقي بنبعيكِ يا طسمٌ مجَّلَلَةً ▫■▫ فقد اتيت لعمري أعجبَ العجبِ

وإن رعيتم لنا قُربى مؤكدةً ▫■▫ كنَّا الأقاربَ في الأرحام والنسبِ

وكانت هذه القصةُ عبرَ مئات السنين هي رمز العداوةِ بين جديس قبيلة زرقاء اليمامة، وأبناء عمومتم قبيلة طسم، وجميعهم من قوم تُبَّع.

وبعد هذه الخديعةِ من جديس، ذهب مَنْ بقيَ من طسم إلي حسَّانِ اليماني تُبَّع (ملك) اليمن فاستنصروه، **وقالوا**: إنَّ هناك قوةً ضاريةً بدأت تدبُّ بين قبائل جديس، وهم من العربِ البائدةِ وأميرتهم الحكيمة عميقة البصيرة «زرقاء اليمامة».

وقالوا له: إنَّ قبائلَ جديس نجحت أخيرًا عقب حروبها الطويلة مع قبائل طسم في إحداث نصر هائل إلى حد فنائها لقبيلتنا طسم وقد شتتوا فلولَها على طول جزيرة العرب شرقًا وغربًا ـ لقد لعبت بطسم أيدي جديس ـ.

عند ذلك أعد حسَّانُ اليمانيُّ تُبَّع اليمن جيشًا جرَّارًا، ليؤدب قبائلَ جديس وكانت زرقاءُ اليمامةِ «أميرة جديس» أكثر شعورًا واستبصارًا بالخطر المحدق بقومها ومدى استفحاله منذ المهد.

كانت على الدوام مدركة لخطر حمير وتُبعَّها الجديد، وكانت زرقاءُ اليمامةِ لا تنام الليل منذ أن علمت ووصل أسماعها، أنَّ الحميريين بقيادة هذا الفتى العائد من الصين وآسيا مهزومًا بعد انتصرات

آبائه وأجـداده هناك، كانت على علمٍ بأنه سـيعـيد بناء نفـسه، وأول هدف له هو «جديس» خاصةً وأن «جديس» بعد انتصارها الساحق على عدوها الأول طسم أصبحت تشكِّلُ قوةً فتيَّة ضاربة في وجهة هذا التُبَّعِ الجديدِ على طول جزيرة العرب بشقيها الشماليِّ والجنوبيِّ

فها هي مدينةُ اليمامة الآن عامرةٌ مزدهرة، ملء السمعِ والبصرِ، وها هي ملكتُها وأميرتُها زرقاءُ اليمامةِ مذهوَّةٌ بتقدُّمِ مدينتها وقبيلتها. ومن هنا فلن يهدأ للحميريين وملكهم التـبع الجديد حسَّان بن أسعد اليمـانيِّ ـ لن يهدأ لـهم بالٌ ـ قبل أن تطأ جـيوشُـهم الجَرارَةُ أرضَ جـديس، لاسيـما وأنَّهـا عـادت محَّـملةٌ بكلِّ جـديدٍ من حروبهـا الآسيويَّةَ، التي لـم تطحنها بقدر ما أعادت فـتح شهيتـها من جديد للفتحِ والغزوِ والحربِ والدَّمِ المراقِ.

ولكم نبَّهتْ زرقاءُ اليـمامةِ الأذهانَ والعقـولَ لما يحدث ويجري من حولهم، مطالبة بعـدم انتكاس السلاح والخلود إلى لذائذ وغنائم حربهم مع طسم التي انتهت باستئصالهـا من الوجود. فعجلة حمير لن ترحم... وهذا قدرُنا.

من يمكن له أن يصدِّق يومًا.. بل لحظةً انتكاس الـريات الخفَّاقةِ داخل مدينة اليمامة إثر النصرِ الـساحقِ على قبيلة جديس. والصوت الوحيـدُ المحذِّر كان لزرقـاء اليمامـة، يجيئـهم بلا صدىً مـبنيًا في اعتقـادهم على مجرَّدِ دلائلَ وظواهرَ لا أساسَ لها من جانب حـمير وتبعهـا الجديد وهو الذي لم يُفِقْ بعدُ من ضربـاتِ الآسيويين، التي أودت بأمرائهم وفيالقهم.

لكن من يسمع ويرى؟!

ذلك الذي يدبُرُه الحميريون وملهُم حسَّان لهم في الخفاء من اجتياحٍ وعدوانٍ، وهو ما حدث بالفعل من جانب التبع حسان بن أسعد اليماني الذي بدأ صحوةً في أيَّامه الأخيرة وعيناه الاثنتان تحُطَّانِ على قبائل «جديس» وعاصمتها اليمامة التي أصبحت مضربَ الأمثالِ بين العربِ نظرًا لما تتمتع به من ثراء وسطوة.

لذا آثر حسَّان اليمانيُّ ووزيرُه الأوَّلُ المقرَّبُ «حنضلة» اللجوءَ إلى الحيلة، وهما يُعدان العُدَّةَ لاجتياح اليمامة عاصمة «جديس». خاصةً وأنَّ قبائل حميرٍ بجيشها لم تفرغ بعد من استكمال استعداداتها وتوحُّدها بعد الخسائر التي مُنِيَتْ بها في حروب الآسيويين. وخاصة أن هذه الغزوة المقبلة تجيء كأولى غزوات «حسَّان اليمانيِّ» كحاكمٍ جديدٍ لحمير وتوابعها. ومن الأسلمِ أن تجئ وما يترتبُ عليها بأقلِ الخسائرِ الممكنة.

لذا فمن الأرجحِ في مثلِ هذه الحالة، مهادنةُ جديس وحاكمتها الزرقاء وإخفاءُ نيَّة العدوانِ، الذي آثر التبع حسَّانُ أن يجريَ ليلاً، وبطريقةٍ مفاجئة ـ لا تسمح للعدو ـ شحذَ قوَّاته وكتائبه خاصةً وأنَّها ـ أي قبائل جديس» ـ وملكتها تشرع أشرعتها، عقب الانتصارِ الساحقِ على مناوئيهم من قبائلِ طسم.

وهكذا أُجْرِيَ الإعدادُ للعدوان سرًا، مصحوبًا بالنيَّات الحسنة المعلنةِ لسكانِ اليمامةِ وأميرتها الزرقاء وهو ما أدركته زرقاء اليمامة ببصيرتها النافذة.

فما من رسالةٍ ـ مـعسولة ـ أصبحت تتلقَّاها مـن حكَّام حمير، إلاَّ وأثارت سـخطها وطاقـتهـا في اسـتنهاض الهـمم، بإزاء الخطر المرتقب القـادم، الذي أصبح يطـرق كل بيت وخبـاء مضـروب في قبائل جديس، ولكن من دون طائلٍ يرجى: خذو حذركم الليلة قبل الغد. ولا من مجيب أو سميعٌ يرجى.

المعركة الفاصلة:

أَحكمَ التُبَّع حسَّانُ اليمانيُّ خطتَه لاجتياح مملكةِ جديس أو قبائل جديس، وكانت ملكتها زرقاء اليمـامة قد منحها الله عيونًا ترى على بعد عشرات الأميال أو قل المئات فكثيرًا ما جلستْ في شرفةِ قصرِها وقـالت أنهـا ترى فرسـانًا وتسـمـيـهم ربما بالاسم وتصف خـيلهم وسلاحَـهم ويأتون أو يصلون بعد يومين من السفـر وهم على ظهور خيلهم، وكان الناس أحـيـانًا لا يصدقون ما تقوله غـيرأن الأيام تثبت صحة ما رأت وحكت لا تجد أحدًا معها في حِدّة النظر، وقد قيل إن في عيـونها عروقًا سـودًا، وهذه العروق هي عبارة عن كـحل أسود يقال له «الإثمد»، كانت زرقاء اليمامة أول من اكتحل به.

نعود إلى العمليق أو التُبَّع حسان بن أسعد اليماني ملك طسم، فقد خرج وهو «ميت الحواس والقلب» لا رحمة عنده.

فمع الهـزيع الأخير من الليل المظلم الدامس وبعد أن قـام جيش حسان اليماني بعملية إخفاء وتمويه هائلة، عندما بلغه حدَّة إبصار زرقاء اليمـامة، فقـد أمر جنوده بالتخـفي من الرأس حتى أخـمص القدمين

بأفرع الأشجار وغصونها من دون بذل أي محاولة لقرع الطبول كعادتهم عند الحرب ولم يبذل أي محاولة لبذل جلبة أو أصوات.

وبَيْنما كانت زرقاء اليمامة تجلس في أعلى أبراج المدينة. صرخت بأعلى صوتها: يا جديس يا قوم لقد مشت إليكم الأشجار وجاءتكم حمير. يا جديس يا قوم لقد مشت إليكم الأشجار وجاءتكم حمير.

ولكن القوم لم يُلقوا بالاً لحديثها وخاصة عندما قالت أن شجراً يمشي إليكم، وقد ميزتهم من تحت الشجر وعرفت أنهم يتخفون في غصون الأشجار.

اقترب التبع حسان اليماني وجنده ومعه وزيره حنضلة، وعندما اقتربوا من ديار جديس، تعمدوا استدراج الكلاب، كلاب جديس بالاحتيال عليها فرموا اللحم المسموم لها. كي لا تنبح، حالما قاربوا مضارب أعدائهم وفرائسهم ليلاً، مما ساعدهم على اقتناص النصر بأقل الخسائر.

وبالصمت الرهيب الذي كان يلف المكان، أطبق حسان على الجديسيين من العرب العاربة وهم داخل مضاجعهم ليطحنهم جيشه الزاحف كمثل غابات وحشية مطبقة من كل صوب على الأسوار والبوابات والدور والمضارب، وسيوف جند الملك حسان تعمل في الرقاب النائمة، مُشعلين النيران والحرائق أينما حلوا.

وكانت الفاجعة التي حلَّت بقبائل جديس، ليُذبحوا رجالاً ونساءً وأطفالاً داخل مضجعهم ليلاً غيلة على ذلك النحو الغادر من جانب ذلك الملك المتجبِّر وجيشه الزاحف الذي طحنهم طحنًا على مرأى من أميرتهم «زرقاء اليمامة» التي أعيتها كل حيلة في تبصيرهم، فهي الوحيدة التي اعتلت رأس فرسانها وحرسها الخاص، وتصدت للحرب والقتال من جهة، ومن جهة أخرى صارخة في بقية رجال جديس ومحاربيها النائمين والغافلين، يا جديس.. يا قوم.

ولقد نفذت أسهم الحميريين، وعملت سيوفهم في رقابهم، عبر تلك المذبحة الليلية التي عمت كالطاعون، ساحات مدينة اليمامة وباحاتها ومضاربها ومنازلها وخيامها دون رحمة أو شفقة.

وعلى الرغم من كل محاولات زرقاء اليمامة وقلة لا تذكر من فرسانها ووصيفاتها من النساء، في التصدي والمقاومة لجيش الملك حسن القادم القوي، إلاَّ أن الهزيمة كانت من نصيبهم.

فما تجدي مجرد كتيبة في مواجهة جيشٍ غازٍ متكامل البنيان؟ إلا أن مقاومة زرقاء اليمامة ورجالها أفزعت التُبَّع حسان ذاته في تلك الليلة الحالكة الظلمة، لدرجة دفعت به إلى البحث بنفسه عن مصدر تلك المقاومة الخطرة، على الرغم من كل ما اتخذه من احتياطات سريَّة، إلى أن تصدى لها بنفسه وصولاً إلى أن أوقعها جريحةً تنزف وهي لا تزال تقذفه بأشنع سبابها، تحت سنابك خيله المدججة.

ولكم كانت دهشة الملك الغازي حسان اليماني الكبرى وهو يرنو إليها من أعلى هامة جواده، ليتعرف عليها وهي في لباس الحرب، امرأة؟!

قالت زرقاء - أجل امرأة، أيها المتآمر، المدجج بالليل والأشجار، ضحك التبع حسان طويلاً إلى أن استلقى على قفاه، قائلاً: لم أضحك منذ زمن.

وحين حاول جنود الأعداء الاعتداء على زرقاء اليمامة والإجهاز عليها منعهم بنفسه: دعوها فهي حليلتي.

فما كان من زرقاء اليمامة الفتاة التي ضحت بنفسها من أجل أهلها إلا أن زحفت وهي مصابة إلى أن قاربته، بعد أن راقت في عينيه نظراً إلى جمالها الباهر وذكائها المتوقد، وذلك التحدي البديع الذي يغطي ملامحها وخلجاتها.

حتى إذا ما حاول التقرب منها، طعنته بخنجرها إلى حد جرحه ونزف دمه. عندئذ هجم حراس حسان وعملت سيوفهم في جسدها إلى أن ماتت زرقاء اليمامة دفاعًا على أهلها ووطنها، وعلى تراب مدينتها اليمامة ترويه بدمائها.

وجاء انتصار حسان اليماني الساحق على زرقاء اليمامة والذي كان مغلفًا بالخديعة والغدر، وبالتالى كسر شوكة جديس على طول جزيرة العرب.

وبذلك كانت زرقاء اليمامة نموذجًا لفداء الفتاة العربية دفاعًا عن أهلها وعشيرتها.